

فكر جديد - لمجتمع جديد

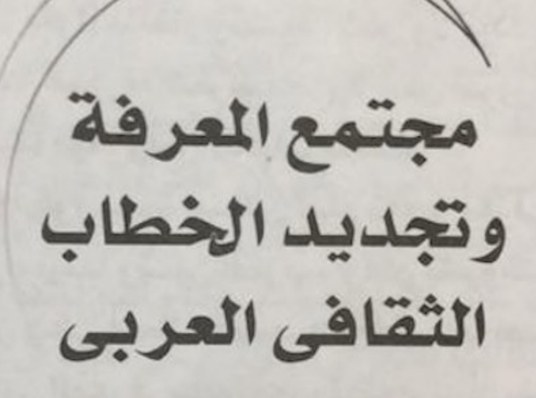
مجلة فصلية - تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب
الإصدار الثانى - العدد السابع - يوليو / سبتمبر ٢٠١٧م

- المحور الرئيسى: نحن والغرب: تبعية وتقليد أم استقلال وندية؟
- محور: الشيخ محمد عبده وحضور أفكاره فى أحوالنا الحاضرة.
- اتجاهات فكرية إفريقية وأوروبية. - كتب حديثة - عرض

فى هذا العدد:



الهيئة المصرية العامة للكتاب



مجتمع المعرفة وتجديد الخطاب الثقافى العربى

(على ضوء مخاطر محو هويتنا)

د. محمود الضبع

أستاذ النقد الأدبى - جامعة قناة السويس

تغلغلت التكنولوجيا فى الحياة البشرية على نحو أسرع من أى ظاهرة أخرى شهدها الكون عبر تاريخه. ففى زمن قصير- نسبيًا- تسارعت المعلوماتية فى التقريب بين المتباعدات، وغدت مكونًا أساسيًا وجانبًا لاغنى عنه لأى منتج بشرى، فكريًا كان أم ماديًا، فمنذ أقل من عشرين عامًا على أقصى تقدير لم يكن فى حسبان البشرية أن التكنولوجيا وطرائق تداول المعلوماتية يمكن أن تكون العامل الأول فى تقويض مؤسسات وأنظمة حكم دامت لعشرات السنين، أو فى إحداث هذا التواصل والتقارب الفكرى بين البشر فى أطراف الأرض المتباعدة، أو فى غيرها من مظاهر الحياة وطرائقها التى نعايشها ونراها الآن، والأهم فى هيمنتها على الخطاب الثقافى والقدرة على التحكم فيه وتوجيهه.

غير أن هذا الجانب المشرق يطرح بعدًا آخر يضرب بجذوره فى القتامة، فكما تتزايد المعلوماتية فى التوغل على نحو مطرد، تتزايد مفاهيم الهيمنة لخطاب ثقافات على حساب خطاب ثقافات أخرى، وتتزايد مخاطر محو هويات ولغات وإسقاط حضارات بأكملها لصالح هويات ولغات وحضارات تمتلك القوة بقدر ما تمتلك من قدرة على التحكم فى وسائل التكنولوجيا ووسائطها وفى إنتاج المعلوماتية وتصديرها، وبالتالى تتشكل خطابات ثقافية بديلة عن خطاب الإعلام الرسمى التقليدى للدول التى لاتمتلك آليات هذا التحكم.

فأين يقف خطاب الثقافة العربية من ذلك؟

وماذا يتوجب على الثقافة العربية أن تصنعه؟

وكيف يتم استقبال أو تداول أصحابها للتحولات الحادثة في صميم ثقافتها، مهما بدا لها في الظاهر أنها بمأمن عن هذه التحولات؟

وهل بالفعل ثقافتنا العربية آمنة؟ ألسنا نعي جميعا أن ثقافتنا في خطر، وهويتنا في خطر؟

لا تسعى هذه القراءة، ولا تزعم أنها ستحمل الحلول الجاهزة والإجابات الشافية عما سبق، ولكنها تطمح فقط لأن تثير – لدى المتلقي – الأفكار والتساؤلات حول الثقافة العربية في المرحلة الراهنة وخطابها، وحول ذلك الركام العظيم من تراثنا العربي وعلاقته بهويتنا الثقافية الراهنة، وإنتاجنا للخطاب، وإمكانات تنظيمه وتخليقه، أو حتى – على أدنى تقدير- إمكانات الاستخدام الأمثل لوسائط التكنولوجيا المعاصرة والمستقبلية في تقديم هذه الثقافة بما يربطها بالواقع الفعلي، وليس الواقع الافتراضي.

الثقافة العربية إلى أين:

إن الثقافة العالمية في ارتكازها على العنصر البشري في تكونها وتشكلها، يطرح بعدًا يتعلق بالمستقبل الذي يهيمن على تشكيله وتشكله ذلك الإنسان.

وتشير الدراسات المستقبلية التي تهتم بالإنسان إلى حجم التطور السريع والمتلاحق في التحولات التي تطرأ على الإنسان بفعل الإنسان، بدءًا من اختراعه لنظم وعلوم وبرمجيات استطاعت أن تغير ملامح العالم، وأن تقوض مفاهيم وتقيم بدلاً منها مفاهيم وتفرض على العالم مسارات لا يستطيع الحياد عنها، وذلك كله من خلال استخدام القوى الناعمة (الثقافة).

ولعل نظرة سريعة إلى أهم ما يتميز به العصر الذي نعيشه تكشف لنا هذا الواقع، ذلك أن الثورة المهيمنة على العالم الآن هي ثورة المعرفة والمعلومات التي فرضت على العالم أن يتسم بكونه عصر مجتمع المعرفة، حيث يتحول العالم إلى كوكب بيو-إلكتروني مترابط لاسلكياً، يخترق العقبات التي ظل العالم يدور في فلكها سنوات مثل الثقل والزمن والمسافة، فاستطاع أن يقوض هذه العقبات جميعها بالتحول إلى الخفة والسرعة والتكثيف والانتقال، بمعنى أن التكنولوجيا الآن سمحت بإمكانية حمل موسوعات ضخمة ومئات الآلاف من الكتب على أقراص (مرنة أو صلبة) لا يزيد وزنها عن جرامات قليلة، وسمحت بإمكانية تكثيف واختزال الزمن عبر الوسائط المتعددة بسرعة تبلغ آلاف المرات لما كانت عليه سابقًا، وسمحت بإمكانية قطع المسافات والانتقال عبر مئات الآلاف من الكيلومترات سواء الانتقال الجسدي عبر الطائرات والصواريخ الفضائية، أو الانتقال عبر الوسائط المتعددة لمشاهدة بقعة نائية في العالم أو التحدث عبر الكاميرا مع شخص في الجانب الآخر تماما من الكرة الأرضية.

إن التكنولوجيا فائقة الصغر والإنسان الآلي (بأشكاله ومفاهيمه المعاصرة التي تجاوزت مجرد شكل الروبوت) غدت هي المتحكمة في نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وهي تمارس هذا الدور دون أن يشعر كثيرون من البشر أنها تمارسه، وهذا أحد معاني القوة الناعمة.

ويطرح مجتمع المعرفة بعدًا مهما يتمثل في النواتج التي يمكن أن تترتب عليه - والتي بدأت بالفعل- والمتمثلة في مفهوم القوة الناتج عن امتلاك المعلومات والمعلوماتية والقدرة على توظيفها وصناعتها information making، وهي القوة التي أصبحت الآن تتحكم في مقدرات الشعوب، وتعيد صياغة مفاهيم الوجود والتأثير العالمي، بحيث غدت الشعارات الدولية تستجيب لخدمة هذه المصالح، مثل شعار انتقال السلطة من القوة البدنية إلى القوة العقلية، وصناعة الميديا، وإعادة تشكيل المتطلبات الأساسية للحياة متمثلة فيما أطلق عليه (Media literacy)، وتفكيك الشعوب من الداخل بأيدي أبنائها عن بعد، وغيرها من الشعارات التي تكمن وراءها أهداف خفية تتنوع بين السياسية والتجارية والاقتصادية، وأحيانا المعرفية بمفهوم نشر العلم وتعلمه.

هنا تغير مفهوم الثقافة، وانتقل من مجرد كم المعلومات المختزن في عقول جماعة من الأفراد، أو مخطوطاتها الأثرية، أوتراثها المكتوب، أو الشفاهي، إلى مفهوم الثقافة المعتمد على الإنتاج، والمرتبط بتحقيق مكاسب اقتصادية على نحو ما.. أي التحول من مفهوم المعرفة المرتبط بالوجاهة الاجتماعية إلى مفهوم المعرفة المرتبط بالاقتصاد، وأدوات الإنتاج، ومتطلبات السوق العالمية، وبناء المنعة لدرء المخاطر (كما ترصد التقارير العالمية للتنمية).

وقد عرف تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003م "نحو إقامة مجتمع المعرفة" عرف مجتمع المعرفة على أنه المجتمع الذي يقوم أساسًا على نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد والمجتمع المدني، والسياسة والحياة الخاصة، وصولا لترقية الحياة الإنسانية باطراد"[1].

ولعل نظرة سريعة إلى متغيرات المعلومات عالميا تكشف عن ذلك، وبخاصة فيما يتعلق بتضاعف حجم المعلومات، والإحصاءات التي تشير إلى أنه في كل ثانية تظهر معلومة جديدة في كل علم على الأقل إن لم تكن تزيد عن هذا الحد، وهو ما يطرح تساؤلاته في كل مجالات ومناحي الحياة الثقافية، بدءا من التعليم، ومرورا بالصحة وعلوم الفلك والكون ومظاهر تطور الحياة، وتطور الإنسان ذاته، والمخ البشري والكشف عن أسراره، وإمكانات تطور العقل البشري بعامة.

وتكمن خطورة ذلك التسارع المطرد في كيفية القيام بدور ما في نقل المعرفة والوعي

الثقافي للأجيال القادمة، فالثقافة والمعرفة لم تعد كما مختزنا من المعلومات التي تحتاج إلى تعليمها للأجيال القادمة، وإنما يتخطي الأمر تلك المرحلة، مثال ذلك التعليم (قبل الجامعي أو الجامعي)، ففي التعليم العربي نحن نعلم الأسس والقواعد والنظريات والمعارف، ولكن في ظل التطور المطرد لتضاعف المعلومات والمعلوماتية، فإن الأسئلة لابد أن تكون حول :

ماذا نعلِّم في ثقافتنا العربية ؟ وماذا ننتج من خطاب ؟

وما الذي يضمن ثبات ما يمكن أن نُعلِّمه لمتعلم بعد مرورعام ونصف فقط، فمتعلم الهندسة على سبيل المثال حين يتعلم نظرية ما، فكيف نضمن بقاء استخدام هذه النظرية بعد عام ونصف ؟

وبالتالي كيف نضمن أن تكون نواتج التعلم صالحة للمنافسة العالمية بعد تخرج المتعلمين؟

هنا يجب البحث في ثقافتنا العربية عن حلول أكثر فاعلية، وقد تكمن في تعليم كيفية التعلم، وفي تعليم الأنماط والنماذج والمهارات الأساسية، مثل نموذج حل المشكلات، ومهارات القيادة، ومهارات إدارة المعرفة (أي معرفة)، ومهارات الوعي بالذات، والعمل في فريق، واستراتيجيات التعلم المختلفة........ إلى آخره من الثوابت التي لاتمثل معرفة، وإنما تمثل مداخل للمعرفة وأشكالا متنوعة للتعامل مع المعرفة.

ولا خلاف الآن على أن التكنولوجيا تمثل ركيزة أساسية من ركائز الثقافة، إن لم تكن أحد أهم مكوناتها، وهو طرح ليس بالجديد على الوعي الغربي (وليس العربي) وأنماط تحول الثقافة لديه، فمنذ الأربعينيات من القرن العشرين كانت هناك دراسات غربية تتعامل مع الثقافة بوصفها نظاما، أي أنها تشكل منظومة (system) تنقسم بدورها إلى منظومات فرعية تندرج تحتها، ومنها دراسة وايت[٢] وتقسيمه لمنظومة الثقافة إلى:

المنظومة التكنولوجية، والمنظومة الاجتماعية، والمنظومة الأيديولوجية، والمنظومة السلوكية.

وكل منظومة من هذه النظم تتشكل بدورها عبر عدد من الخلايا الفاعلة، فعلى سبيل المثال تتكون المنظومة التكنولوجية من الأدوات أو التجهيزات المادية (الجانب المادي الظاهر) ومن جانب خفي هو الأهم يتمثل في البرمجة والاستخدام الأمثل لهذه التكنولوجيا، بحيث تتحول بها الثقافة إلى إنتاج، وليس مجرد استهلاك.

في حين تتكون المنظومة الإيديولوجية من الأفكار والمعتقدات والمعارف، التي يتم التعبير عنا والتداول بها وإنتاجها في شكل ثقافة تطبيقية، وتتشابك هذه المنظومة بدورها مع المنظومة التكنولوجية على نحو أو على آخر، وهكذا.

وقد استطاع الغرب التوصل إلى تطبيق ذلك فعليا على النحو الذي تشهده البشرية الآن، في حين بقي الوعي العربي مرتبطا بماضيه الفكري والتراثي والحضاري الذي يحيا على أنقاضه، ويتصور أن استعادته هي التي ستحقق له المشاركة المعلوماتية وإنتاج خطاب ثقافي جديد، وبناء مجتمعات المعرفة، وهذه العوامل مجتمعة تقتضي سرعة المراجعة للوعي العربي حول مفهومه للثقافة، وطرح سؤالها المستقبلي وليس سؤال الماضي.

المعلوماتية ومجتمع المعرفة.

إذا كان التحول الذي طرأ على الحياة بفعل البنية المعرفية المهيمنة والتطور في إنتاج المعرفة، يمثل ضرورة من الضرورات المعاصرة، وملمحًا من ملامح القوة، وآلية من آليات الإنتاج، وسبيلاً نحو الرفاه البشري، فهو أيضًا يخشى منه في تذويب الهويات، وتداخل الحدود، ومنح الحريات للأقوى بلا أدنى حدود، إضافة إلى أنه حدد معايير جديدة لقياس قوة المجتمعات، وأرسى قواعد جديدة للتراكم الرأسمالي، وأنه جعل نفسه حتما لابد منه، وضرورة قصوى من ضرورات البقاء، إذ تغلغلت المعرفة والمعلوماتية الآن وهيمنت على كل أنماط الحياة، بما فيه من اقتصاديات وسياسات دولية.

أصبح الشعار الذي تتبناه مجتمعات المعرفة هو الانتقال من القوة البدنية إلى القوة العقلية وأصبحت المعرفة والمعلوماتية هي الطريق الأول للقوة، وللتطور الاقتصادي، فكثير من الشعوب التي لم يكن لها ذكر عبر التاريخ أصبحت بفعل المعرفة والإنتاج التكنولوجي تمثل ثقلاً اقتصاديًّا، وقوة تتطور يومًا بعد يوم (فنلندا مثلا وإنتاج هاتف نوكيا المحمول، وغيرها كثير).

والسؤال المطروح هنا في ثقافتنا العربية سيدور حول المعرفة وطبيعتها وأنواعها، وأشكالها، وانتماءاتها، بمعنى قناعات الأمم والشعوب بمفاهيم المعرفة، وعلاقتها الأكيدة بالتطور الاقتصادي، فهل تعني المعرفة لدينا المعرفة الدينية البحتة؟، أم استعادة النموذج الديني المعرفي القديم الذي كان ملائمًا لعصره في القرون الأولى لفكر الأمة؟، أم يعني محاولة استخلاص المعرفة النوعية عبر تطورها، وربطها بقضايا الاقتصاد المعاصرة، وبخاصة مفاهيم الإنتاج الفكري والمعرفي؟.

الوعي العربي لم يزل ملتبسا عليه الأمر في هذه القضية، إذ لا هو يستطيع القيام بعملية تنقية والتخلي عن كثير من التراث غير الصالح للتداول الآن، وفي الآن ذاته لم يستطع استيعاب مفهوم بناء قاعدة معرفية تجعل المعلومات سلعة تباع وتشترى، وتؤكد على مفاهيم التكتلات الاقتصادية، وأن ذلك بات ضرورة لاخلاف عليها، وبعدًا أساسيًّا من أبعاد تعريف الثقافة وتداولها.

التغيرات الاقتصادية والسياسية المعاصرة فى مجتمع المعرفة.

تغير التفكير الاقتصادي والسياسي للعالم؛ فأصبح الإنتاج الضخم للمعارف والمعلومات هو البديل عن الإنتاج الضخم للسلع المادية، وأصبحت المعارف والمعلومات هي الموارد الأساسية للعالم، وعلى أساسها يعاد ترتيب نسق القيم الاقتصادية والسياسية، لأنها نوع من الموارد يختلف جذريًّا عن غيره من الموارد التي ألفتها البشرية على طول تاريخها الممتد.

لقد باتت تكنولوجيا المعلومات وما يرتبط بها من برمجيات أحد أهم دعائم التحولات الاقتصادية، ومن ثم يعد ما نراه الآن ثورة بدأت منذ بدايات التسعينات من القرن الماضي، مع تفكك الاتحاد السوفييتي، وانفجار ثورة الإلكترونيات، والبدء في عمليات الخصخصة وتحرير السوق وإعادة الهيكلية الاقتصادية وقيام منظمة التجارة العالمية عام 1994[٣]، كما طرأت على العالم تحولات اقتصادية واضحة تمثلت في اندماج المبادلات التجارية وتنقل رؤوس الأموال، وتطور عوامل الإنتاج والسلع، بما في ذلك التكنولوجيات الحديثة على أنماط القيادة الاقتصادية والسياسية، والاقتصاديات القروية والوطنية والإقليمية في اقتصاد عالمي موحد بعد أن صار العالم سوقًا واحدة، بما أصبحت فيه التجارة العالمية تبدو وكأنها في نمو مطرد يستفيد منه الجميع بعد أن غدا العالم قرية كونية متشابهة النمو ومتلاحمة بجميع أجزائها، وخاصة بعد الدور الذي لعبته الأقمار الصناعية وشبكة الانترنت ومختلف أشكال ثورة الاتصالات الرقمية[٤].

وما يزال الوعي العربي حتى الآن لا يرى في المعرفة والمعلوماتية والفكر والثقافة مخرجا لحل أزماته، ولا بوابة يمكن العبور من خلالها إلى مجتمع المعرفة، رغم وضوح الحقيقة أمام عينيه، ورغم ما يمتلكه من تراث (يمكن تنقيته) ومفكرين وعلماء وأبحاث (يمكن تحريرها من أرفف المكتبات وأدراج المكاتب).. فقط ينتبه الوعي العربي أن الثقافة والفكر والمعرفة والبحث العلمي هي التي ستمنحه القوة السياسية، وسترفع من معدلات الاقتصاد ومعدلات التنمية بالمفاهيم المعاصرة، وحينها ربما يولي الوعي العربي للثقافة العناية الكافية، وتجعلها الحكومات العربية من الملفات الأساسية للدولة بدلا من التعامل معها بوصفها ملفات تكميلية ومن باب الرفاهية.

مؤشرات التحولات الاقتصادية:

مؤشرات عديدة يمكن رصدها في إطار التحولات الاقتصادية على المستوى العالمي، تقتضي علينا إعادة النظر في ضرورة بناء قاعدة معرفية عربية، ووضع هذه المؤشرات في الاعتبار، ومنها:

تراجع حجم الدولة كمؤسسة اقتصادية لمصلحة القطاع الخاص "الخصخصة".

- تنامي دور الشركات المتعددة الجنسيات، وعمليات الدمج المستمرة فيما بينها، وتحكمها في اقتصاد العالم[٥]، وسيطرة عدد من هذه الشركات على جزء كبير من السوق العالمية، وتغييرها من مفاهيم الاقتصاد حيث تم إقرار نمط الاستثمار السريع الفوائد قصيرالأجل دون مراعاة للأخلاقيات أو المصالح العامة والتنمية المحلية، على حساب الاستثمار الطويل والمباشر، مما عمل على توسيع الدائرة، وفتح الباب على مصراعيه فيما يتعلق بعمليات غسيل الأموال الدولية وغيرها من العمليات غير المشروعة.
- تزايد الروابط الاقتصادية وتفكك الروابط السياسية، وبخاصة مع الشركات التي لم يعد لها مكان محدد، ولامسؤلون محددون وإنما مسئولون متعددو الجنسيات، كما لم يعد لها سياسات محددة، اللهم إلا تحقيق الربح على حساب أي شيء، وكل هذا ناتج من تأثير تكنولوجيا الاتصالات وظاهرة العولمة أو الكوكبية على الجوانب الاقتصادية والسياسية بشكل رئيسى.
- التغير فى مفاهيم الحرب والإرهاب وثقافة السلام، فالمصالح الاقتصادية تسعى لتحقيق الأرباح، والتصدي لمشكلات المستقبل، ومن ثم أصبح الاقتصاد عاملا أساسيًا في نشأة الحروب (حرب ليبيا وحلف الناتو، وحرب سورية والصراع الروسي الأمريكي الإيراني التركي على الأرض العربية)، أو افتعالها ضد البلدان التي تمتلك موارد على نحو ما (حرب العراق ضد صدام)، كما أصبح الاقتصاد هو العامل الأساسي في منح بعض البلدان حقوق الاحترام والولاء والخضوع لها ومراعاة مصالحها، وحماية أفرادها.... إن السلام أو الإرهاب لم يعودا في ظل هيمنة الاقتصاد خيارًا استراتيجيًا، وإنما أصبحا ناتجًا عن القوة الاقتصادية بمفاهيمها المعاصرة... لقد زاد الإرهاب ونما، وأصبح يمثل تهديدًا فى هذه الظروف المتغيرة، وأصبح غير محصور بحدود جغرافية، بل يمثل تهديدًا جديدًا للمجتمع العالمى ولنا نحن العرب، وساعد على إنمائه بعض الأوضاع الاجتماعية السائدة مثل: الفقر، والبطالة، التى كانت منتشرة فى العقد الأخير من القرن العشرين، وهو ما دعا المنظمات الدولية إلى الدعوة للسلام، والعمل على نشر ثقافة السلام كركيزة أساسية للمجتمعات المعاصرة ومجتمع المعرفة، ولعلنا نعاني في السنوات الأربع الأخيرة من تزايد حدة الإرهاب داخل بلدان الوطن العربي (مصر وبخاصة بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، وتلتها على الترتيب في ارتفاع معدلات العمليات الإرهابية : ليبيا، وسورية، اليمن، وتونس، والسعودية، السودان)، وخارج بلدان الوطن العربي، وفي كل مرة يتم توجيه أصابع الاتهام إلينا نحن العرب باعتبار ثقافتنا مصدرة للإرهاب، وهو الأمر الذي يزيد من

زعمه عدم وجود قواعد بيانات معرفية عربية تستطيع شعوب العالم التواصل عبرها لمعرفة حقيقة ما يتم زعمه.

المعرفة والتنمية الاقتصادية:

- **الخصائص الأساسية لمجتمع المعرفة، وعلاقتها ببناء قاعدة معرفية.**

يتميز مجتمع المعرفة بأنه مجتمع معقد متشابك النظم والارتباطات، وتتعدد الجوانب التي يمكن من خلالها رصد هذا المجتمع، وإن كانت جميعها تدور حول ثقافة الإنتاج وطبيعته والقائمين عليه، والنظم الحاكمة لهذا الإنتاج، والخطط والسياسات لما بعد الإنتاج.

ويمكن في هذا الصدد رصد أهم الخصائص الأساسية لمجتمع المعرفة والتي تسهم في بناء قاعدة معرفية على النحو التالي:

- المعلوماتية، وعلاقتها بدراسة الظواهرالإنسانية والطبيعية والعلمية على حد سواء، إذ ما من ظاهرة أيا كان نوعها، إلا ولها شقها المعلوماتي، ولكن كيف يتم تداول هذه المعلومات؟، وكيف يمكن عرضها؟، وكيف يمكن التعامل معها؟، تلك هي القضية التي ينبغي طرحها على المؤسسات العلمية العربية، وهي قادرة على إنتاج هذه المعرفة بالكيفيات التي تتطلبها المعلوماتية والحياة المعاصرة.
- اعتماد المعرفة عاملاً أساسيًا في الإنتاج، على اعتبار أن المعرفة غدت تمثل الاقتصاد الرابع كما يتم تسميته، بعد أن كانت الأرض عاملاً أساسيًا في الاقتصاد الزراعي، ورأس المال في الاقتصاد الصناعي، وهو ما يتطلب من الحكومات العربية وضع ملفات المعرفة في مقدمة اهتماماتها وليس في نهاية القوائم.
- التكنولوجيا، إذ إن أي معرفة لاتدين للمعالجة الآلية بواسطة أدوات التكنولوجيا فإن مآلها إلى الزوال، وغير خاف على الجميع هيمنة الآلات التكنولوجية على مجريات الحياة اليومية، وهو ما يطرح أهمية الإسراع في محو الأمية التكنولوجية، والانتقال بشعوب البلدان العربية إلى اعتماد التكنولوجيا في إدارة أعمالهم وعناصر إنتاجهم.
- الدمج بين الحقول المعرفية المتنوعة، ومحو الفواصل والحدود القاطعة بين المعارف، وهدم مفاهيم اليقينية في المعرفة الإنسانية بخاصة، على حساب الاحتمالية، وإمكانات الالتقاء والامتزاج والاندماج، فالحدود القاطعة الآن تمحى، والرأي الواحد لم يعد له مجال، واعتماد الشكل الأحادي للمعرفة، لايمكن له أن ينتج أفرادًا قادرين على التعامل مع أفكار العالم الحالية أو المستقبلية خاصة مع التوجه العلمي نحو الدراسات والعلوم البينية التي تنتمي إلى حقول معرفية متعددة وليس حقلا واحدا، وهو ما يستدعي من الدول العربية الاهتمام بالتعليم الذي يؤسس لإكساب هذه المهارات، والإعلام الداعم.

- تنويع مصادر المعرفة والمعلومات، وعدم الاعتماد على المصادر الأحادية، وتكفي هنا الإشارة إلى ما أثاره تقرير التنمية البشرية للعام 2005 بعنوان "الحرية الثقافية في عالمنا المتنوع" من أن الثقافة والهوية لا تتشكل بتوحيد النمط وإنما بتعديده، ويمكننا في ثقافتنا العربية رصد حجم ابتعادنا عن هذا الأمر من خلال تحليل كثير من دراسات العاملين في مجالات التثقيف والتعليم واعتمادها على مصادر تكاد تكون متشابهة، لاتخرج عما يمكن تسميته بالمراجع الأصول التي لايمكن الحيد عنها، والأكثر خطورة هو كيفية تعامل البعض مع هذه المراجع، على نحو لايقبل النقاش أو المخالفة مع ما تعرض له من آراء، مما يؤثر بدوره على نمط العقلية العربية وطرائق تفكيرها، وإن كانت هناك آلاف الدراسات العربية المتطورة التي تحتاج إلى تفعيل وإنتاج.
- ظهور أساليب جديدة للتقسيم الدولى للعمل، احتلت بموجبه التكنولوجيا مكان الأيديولوجيا فى صياغة شكل النظام العالمى الجديد، وتحديد شكل العلاقات الدولية فى هذا النظام فى المجالات المختلفة، اقتصادية وسياسية وثقافية وتربوية وما سواها.
- ظهور تقسيمات وفوارق طبقية من نوع جديد بين أبناء المجتمع الواحد، بين من يملكون المعرفة ويتحكمون فيها ومن لا يملكونها، وهذه الفوارق ستكون أكثر حدة وعمقًا، من أية فوارق أنتجتها امتيازات التحكم فى الثروة المادية.
- التغير الجذرى فى مفهوم العمل ومجالاته وآلياته ومهاراته؛ مما أسهم فى بروز مجموعات جديدة من الأعمال والوظائف المرتبطة بالمعارف والمعلومات، وأصبحت التجارة الرابحة هى تجارة المعرفة، وبات التجار الأكثر حظًّا هم تجار المعلومات، ويرتبط بذلك حدوث تأثيرات واضحة على التنظيم الاجتماعى وعلاقات العمل. فعلى عكس ما جرى العرف عليه من الفصل بين المنزل ومكان العمل، يستطيع المشتغلون بصناعة المعلومات أن يقوموا بوظائفهم فى منازلهم، مما أثر على مركزية العمل من حيث التوجه أكثر نحو اللامركزية، كما تغير مفهوم وشكل التنظيم الإدارى، بتراجع التنظيم الهرمى ليفسح المجال أمام التنظيم الشبكى، بما يصاحب ذلك من تغييرات فى مفهوم السلطة وآليات صنع القرارات.

وبالمقارنة مع الوعي العربي وخطابه الثقافي، يمكن لنا الوقوف على الوضع العربي إجمالا، حاضره ومستقبله قياسا إلى الخصائص الأساسية السابقة التي تبناها الوعي العالمي.

ثقافة التكنولوجيا

أصبح من المتفق عليه أن لكل ظاهرة شقها المعلوماتي، وأن كل معرفة علمية لاتدين للمعالجة الآلية بواسطة الحواسيب الآلية مآلها إلى زوال، وتشير الدراسات المستقبلية إلى أن

التطور المعرفي في مجتمع المعرفة سوف يشهد نقلات نوعية جديدة ستسعى إلى التقريب بين المجالات المعرفية المتباينة ومحو الفواصل بين التخصصات والعلوم المختلفة، والتأكيد على تكامل المعرفة الإنسانية ووحدتها، وهو ما يتطلب بدوره معالجات جديدة للفكر الإنساني تخلصه من الآثار السلبية لتفتيت المعارف وتجزئة العلوم، وما يتمخض عنها من ثنائيات ثقافية متعددة. والمعلوماتية بوصفها تتعامل مع الرموز تصبح أقدر على تناول الإشكاليات المعرفية المختلفة تناولاً كليًّا على مستوى المفاهيم المجردة، وبعيداً عن الاستغراق في التفاصيل والتحليلات الجزئية، فعلى سبيل المثال استطاعت المعلوماتية التقريب بين علوم اللغة والإنسانيات والعلوم الطبيعية انطلاقًا من أن لكل ظاهرة علمية لها شقها اللغوي، وأن اللغة عنصر أساسي في فهم رموز أي علم أو تخصص أيا كان، وتدخلت التكنولوجيا تدخلاً واضحًا في كل العلوم، بل تجاوزت ذلك إلى ابتكار علوم جديدة لم تكن موجودة من قبل، وما كان لها أن توجد لولا وجود التكنولوجيا، ومنها تكنولوجيا الوراثة والثورة البيولوجية، وتكنولوجيا المخ، وتكنولوجيا الطاقة، وغيرها.

تكنولوجيا الوراثة والثورة البيولوجية :Genetic Technology

شغل البحث في الكائن البشري، وخلايا المخ الإنساني كثيرًا من الاهتمام العلمي والتشريحي، ذلك أنه برغم كل ما حققته البشرية من تطورات هائلة في مجالات الحياة إلا أن بيولوجيا الكائن البشري ونشأته وتطوره، واللغة التي صنعها هذا الكائن لم تزل جميعها في مراحل تعتيمية غير مكتشف الكثير منها، فالاهتمام ببيولوجيا المخ البشري، وما يدور داخل الدماغ، وداخل الجسم، هو ما أفرز الدرسات حول خرائط المخ وخرائط الجينات، والاستنساخ والجينوم البشري، والبروتينوم Proteomes، من أجل دراسة الواقع الفعلي للغة الجينات، التي تم ترجمتها بالفعل إلى مقابل مادي ملموس ومحسوس من البروتينات، والإنزيمات، التي ينظر إليها اليوم على أنها سر الحياة، والسبيل نحو تحقيق الهدف الأسمى للحياة وهو السعادة.

وعلى هذا الأساس فإن البيولوجيا الجزئية مرشحة لتكون أحد مفاتيح التطور المعرفي في مجتمع المعرفة، باعتبارها المدخل الأكثر مناسبة لحل إشكاليات المستقبل المعقدة، ووسيلة لتخليص المعرفة الإنسانية من الآثار السلبية التي خلفتها "حضارة الفيزياء" وما تمخض عنها من حتميات مبالغ فيها ويقين بات لا يقين.

تكنولوجيا المواد Materials Technology

لاشك أن تطوير واستخدام المواد أصبح خاضعا للتكنولوجيا في كل خطواته، بل تطور

الأمر إلى تدخل النانو تكنولوجي في تصنيع جميع المواد تقريبًا، ليس فقط في الصناعات الإلكترونية، وإنما في صناعات الطاقة والمعلومات والطب والهندسة والبناء والكيمياء والفيزياء، والمصادر الطبيعية من مياه الشرب والغذاء وخلافه، ولا أدل على ذلك من ظهور أكثر من 400 سلعة استهلاكية نشأت في العالم بفعل استخدام النانو تكنولوجي على نحو أو على آخر، الأمر الذي يتطلب على الشعوب والبلدان العربية ضرورة الإسراع بدراسة إمكاناتها من المواد الطبيعية والصناعية، ودراسة كيفية إخضاعها للتصنيع باستخدام هذه التكنولوجيا فائقة الصغر.

تكنولوجيا المخ Brain Technology

بات تشريح المخ، ورسم الخرائط الدماغية، والبحث في كيفية عمل المخ من القضايا التي تشغل العلماء والمفكرين ومراكز الأبحاث، وقد حققت البشرية في هذا الصدد تقدمًا ملحوظًا، وبخاصة مع التوصل إلى المراكز المخية ووظائفها، وكيفية استقبالها للمعلومات، وكيفية التخزين والاستدعاء، ومن ثم رصد بعض إمكانات المخ البشري غير المحدودة.

لقد كان للتطور في مجال الكمبيوتر والبرمجيات أثره الكبير في تطور أبحاث المخ، إذ مع التحولات التي أحدثتها التكنولوجيا والتعامل مع معطياتها، تحولت النظرة إلى المخ البشري والإنسان بعامة بوصفة قابلاً للتشريح الفيزيائي، وبرمجته وإعادة برمجته، تماما كما هو الحال مع الأقراص المرنة والصلبة في الكمبيوتر، ومع Mother board وكافة مكونات الكمبيوتر والآلات التكنولوجية المعقدة، مما أوجد مصطلحات جديدة يتم تداولها الآن، منها الذكاء الاصطناعي، والبرمجة المخية، والبرمجة العصبية، وغيرها من المصطلحات المرتبطة في أساسها بالتعامل مع معطيات التكنولوجيا.

هذه الأمور جميعها تعد بعيدة عن مشاركة بلدان العالم الثالث والوعي الثقافي الخاص بنا، بل قد يصل الأمر إلى عدم الدراية بما يتم في إطارها، ليس فقط على مستوى القاعدة العامة للشرائح البشرية، وإنما على مستوى شرائح النخبة من المثقفين في غير العلوم التطبيقية، من الإنسانيات التي قد ترى في بعض الأحيان أن هذه الأمور بعيدة عن التخصص، كما يتخذ البعض معها الموقف الانسحابي، أو الموقف المضاد، انطلاقًا من مقولة الإنسان عدو ما يجهل.

الثقافة والتكنولوجيا والتحديات المستقبلية

تحديات عديدة تواجه البشرية اليوم، لعل أخطرها ما يواجه الإنسانية في المحافظة على إنسانيتها، فالمخاوف شديدة حيال ما يمكن أن يطرأ على البشر أنفسهم من تغيرات كيميائية سواء في كيمياء المخ أو المشاعر، نتيجة للدراسات

التي تسعى لمحاولة التحكم في الطبائع البشرية، والخلايا العصبية، ومراكز المخ، وكريات الدم السالبة والموجبة، والهندسة الوراثية التي تنطلق من القناعة بإمكانية التدخل في أي جين وراثي، إنساني كان أم حيواني، أم نباتي، ولعل النتائج التي توصل إليها استنساخ البشر تشير إلى الإمكانات المتاحة أم علوم الجينات والهندسة الوراثية، وبخاصة في مجالات برمجة الإنسان وبرمجة الخلايا العصبية، مما دفع كثيرا من المفكرين لوصفها بمرحلة ما بعد الإنسانية Post humanity وصفًا لفلسفتها التي تسعى بالإنسان لأن يكون آلة قابلة لثبيت نظام أو إعادة تثبيته (مثل أجهزة المحمول، والكمبيوتر...)، ولتدخلها في تغيير الجينات الوراثية سعيًا للتحسين في السمات الجسمانية والعقلية.

وهناك تحدٍ آخر يواجه البشرية، هو اعتماد السوق العالمية للتجارة على صناعة المضامين الثقافية، وما يرتبط بها من إعلام وترفيه، والتأسيس لما أطلق عليه الثقافة العالمية الكونية التي تدفع العلم إلى محاولة إيجاد نمط ثقافي واحد، وقد تبدو المحاولة صعبة المنال في الوقت الحاضر، إلا أنها على المدى البعيد، وفي إطار انقسام العالم إلى شعوب تعولم وتمتلك مفاتيح التكنولوجيا، وشعوب تتعولم ولا تمتلك سوى الاستقبال، في هذا الإطار قد يتحول صعب المنال إلى التحقق الفعلي.

يضاف إلى ذلك جميعه، بزوغ الصراع الحضاري والثقافي بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، انطلاقًا من فكر صدام الحضارات لفوكاياما، وما ترتب عليه من دعاوى الهيمنة وإحلال السلام العالمي المزعوم، والهيمنات الثقافية، والاختراق الثقافي، والعولمة الثقافية، وما يترتب عليها من محاولات للمحو الثقافي، بحجة إعاقتها للتطور الحضاري البشري، وهذا المحو سيتوجه بالطبع نحو شعوب العالم الثالث، أو لصالح ثقافة واحدة هي ثقافة الأقوى (الغرب).

أما على مستوى الثقافة العربية، فإنها تنفرد بتحديات أكثر مما سبق، يمكن إجمالها في إشكاليات الرؤية والمصطلح والخلط المفاهيمي بين الثقافة والمعرفة، وإشكاليات المنهج، والتنوع[٦] غير الممنهج، وعدم القدرة على حل كثير من القضايا المصيرية التي استطاعت كثير من الشعوب التعامل معها والانتهاء منها، والخلوص والخلو لمواجهة مشكلات تمثل صميم الحياة، ومنها قضايا الدولة والدين، والعلم والدين، والأصالة والمعاصرة، ناهيا بالطبع عن الثنائيات الضدية التي طرحتها الحياة المعاصرة

والتي تمثل تحديات معاصرة ومستقبلية للعالم أجمع، ومنها المحلية والعالمية، والهوية والعولمة، والمواجهة والالتحام، والنظام الإقليمي والنظام العالمي، وغيرها من القضايا التي لم تحل بعد.

ومن التحديات المستقبلية التي طرحتها التكنولوجيا وتتطلب وعيا ثقافيا لمواجهتها، ما يتعلق بقضايا التلوث، والتصحر، والجفاف، وتوقع الحروب المستقبلية حول قطرة ماء، والطاقة البديلة، وارتفاع درجات الحرارة، وغيرها من مشكلات البيئة المعاصرة والمستقبلية، والتي تعد قضايا جوهرية من بنية المعرفة العالمية وطرح مخاوفها، ومن ثم السعي الحثيث نحو دراستها، والبحث عن بدائل وحلول، تؤثر في اتخاذ قرارات استراتيجية حالية لصالح المستقبل، والأمر كله مرهون بالمعرفة ونتائج الدراسات والأبحاث البيئية.

ولاشك في هذا السياق أن البلدان العربية تمتلك مراكز وهيئات تعمل في مجال البيئة، ولاشك أن هذه المراكز والهيئات لديها من الدراسات والنتائج ما يحتاج إلى تحويله لمعرفة إنتاجية، وليست معرفة حبيسة أو غير مفعلة، مما يسمح للبلدان العربية الأخرى أن تفيد من نتائجها، ويتمكن الأفراد والهيئات والمؤسسات للتصدي لمشكلات البيئة المتعلقة بأي من هذه البلدان، وبخاصة مع النفايات النووية، ونفايات المصانع، وإلقاء المخلفات الكيميائية في المجاري المائية، وتكدس أكوام القمامة بالقرب من المناطق السكنية، والتلوث الناتج عن الاحتراق أو الناتج عن استخدام المبيدات الحشرية والزراعية وغيرها من المشكلات المتفاقمة يوما بعد يوم، والتي قد تنتج فقط عن عدم الوعي بأضرار هذه الممارسات.

الثقافة والتكنولوجيا واللغة

اللغة هي المحور الذي تدور حوله صناعة الحضارة الحاضرة والمستقبلية، ليس هذا من قبيل التزيد أو المبالغة، وإنما هي حقيقة واقعة، ولكن أية لغة تلك التي تقوم عليها الحضارة؟، إنها ليست اللغة المنطوقة أو المكتوبة بالمفهوم المتعارف عليه فقط، ولكنها اللغة الخفية لغة البرمجة القادرة على تشكيل النظم والتحكم في تسخير الأدوات، وهي كذلك لغة الإنتاج الثقافي إن كان ظاهرا في شكل ثقافة تداول، أو خفيًا في شكل برمجة.

وهناك دراسات وآراء تؤكد على أن مكونات حضارة العالم اليوم تعتمد على أبعاد ثلاث، هي البيولوجيا الجزيئية والمعلوماتية وعلم اللغة، إذ إن علم اللغة أصبح يتدخل في كل الظواهر الطبيعية والإنسانية، كما أن لكل علم لغته، وكل رمز أو علامة لابد من ترجمتها إلى لغة وإلا تكون عديمة القيمة، مثل لغة الجينات ولغة الكيمياء والرموز الرياضية، وغيرها.

إن اللغة المعنية هنا في سياق الحديث عن التكنولوجيا هي لغة الإنتاج القادرة على الإسهام في صناعة المعلوماتية، وبخاصة لغات البرمجة، أو ما يطلق عليه اللغات الاصطناعية (بيسك وكوبول وباسكال)، وهي لغات تعتمد في تصميمها على محاكات اللغات الإنسانية وخصائصها، وهي آليات إنتاج الخطاب الثقافي عالميا.

أمر آخر يرتبط بلغة التكنولوجيا، وهو المتعلق باللغات المستخدمة في الذكاء الاصطناعي، الذي يمثل بدوره نقطة الاتصال بين اللغة والمعلوماتية: حيث يرتكز ذكاء الآلة، في الأساس، على محاكاة الوظائف اللغوية للمخ.

ويضاف إلى ذلك جميعه أبحاث ودراسات المخ البشري التي تسعى للتوصل إلى اكتشاف المراكز والخلايا المخية المسؤولة عن تعليم وتعلم اللغات، وترجمة الرموز والأشياء في المخ إلى لغة مفهومة، والعلاقة بين قراءة الحروف والكلمات وما تدل عليه من معانٍ، بمعنى البحث في كيفية نشأة وتكون المعنى في المخ، وهو ما طرح الخرائط المخية والذهنية، ولغات الأعصاب والبرمجة العصبية، وإمكانات التحكم في المخ البشري وبرمجته عن طريق اللغة.

مما سبق يتضح دور وأهمية اللغة في تطوير الحياة البشرية، وفي إنتاج تكنولوجيا، وفي تطوير المعرفة البشرية بعامة، والفكر التكنولوجي على نحو خاص، وهو ما يكشف أيضا عن سر انقراض اللغات الذي يتم تداوله الآن، وفي النهاية يمثل أهمية لأنه الأداة الأولى لإنتاج الخطاب الثقافي العربي الذي نطمح إليه.

الهوامش والمراجع:

1. تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2003، **"نحو إقامة مجتمع المعرفة"**، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي: 39.
2. Leslie White: The **Science of Culture: A Study of Man and Civilization, grove** press, inc, New York,1949.
3. يمكن العودة إلى: حازم الببلاوي، **النظام الاقتصادي الدولي المعاصر: من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة**، سلسلة عالم المعرفة 257 (الكويت، 2000): 207.

4. هانس بيتر مارتين، وهارلد شومان، **فخ العولمة (الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية)**، ترجمة دنان عباس علي، مراجعة وتقديم رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة العدد 238 (الكويت، 1998): 11.
5. بلغ عدد هذه الشركات نحو 30 ألفًا، وصل إجمالي أعمالها إلى أكثر من نصف الناتج العالمي القائم، وتقدر أصول هذه الشركات بنحو 92 تريليون دولار وعدد العاملين فيها بنحو 35 مليونًا. واستنادًا إلى تقارير البنك الدولي، فإن حجم أعمال خمس شركات رئيسية تجاوز في عام 1996 مجموع الناتج المحلي القائم لدول آسيا الجنوبية وأفريقيا جنوب الصحراء والدول الأكثر فقرًا في العالم – للمزيد يمكن العودة إلى:
- **تقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا**، الأسكوا، الاستعراض السنوي للتطورات في مجال العولمة والتكامل الإقليمي، نيويورك، 2005م، ص 4، وما بعدها.
- أحمد العثيم، **استراتيجية التعامل بين الشركات متعددة الجنسيات والدول المضيفة**، المشروعات المشتركة نموذجا، صحيفة الجزيرة، ع12636، الجمعة 17 ربيع الثاني 1428هـ.
6. هناك آراء ترى أن التنوع الثقافي ليس عيبًا في ذاته، بل قد يكون ميزة، شريطة أن يتم نظمه في نسق أو مشروع يحوى بداخله ذلك التنوع، وهو أمر يحتاج لعمل مؤسسي دولي، وليس جهودًا فردية.